

الحضور الفينومنتولوجي ضمن التفكيك

أ. وهيبة يحيياوي

مخبر الفلسفة وتاريخها- جامعة وهران 2

تعتبر الفينومنتولوجيا من أهم المقاربات فلسفية المعاصرة و التي عرفت انفتاحا كبيرا على تاريخ الفلسفة ،لقد كان تفكير هوسرل في الفينومنتولوجيا كعلم كلي وليد وعي بأزمة معرفية و منهجية عرفت العلوم الأوروبية ،وخصوصا العلوم الإنسانية و الفلسفة،و دعوة لمراجعة الأسس التي تقوم عليها موضوعية العلوم و التأسيس جديد لشروط العلم.

أفضت بحوث هوسرل إلى ضرورة العودة إلى الوعي و الانتباه إلى أفعاله من خلال تجربة المعيش،عرفت الفلسفة بعد التأسيس المعرفي و المنهجي الهوسرلي منعطفا حاسما جعل التفكير الفلسفي ، يفتح على قضايا الذات و الوجود ضمن العالم ،و مسائل المنهج ،لقد استثمر تلامذة هوسرل الإرث الفينومنتولوجيا و بلوروا بحوثه لتتخذ الفينومنتولوجيا صيغة التعدد من هايدغر ومرلو بونتي وصولا لليفناس.

إن الحديث عن فينومنتولوجيات يستدعى طرح قضية المنهج الفينومنتولوجيا أو الأسلوب الفينومنتولوجي المميز للتفلسف ضمن هذا التوجه ،هذا ما سنحاول تقصيه من خلال تناول كيفية حضور الفينومنتولوجيا ضمن مقارنة دريدا التفكيكية، باعتبار أن الفينومنتولوجيا الرافد تكويني الأساس لدريدا، في معالجته لمسائل قراءة التراث الغربي الميتافيزيقي. بناء عليه نقارب التساؤل التالي:ما هي الرؤية التي أسستها الفينومنتولوجيا بخصوص الميتافيزيقي؟ بأي قدر يمكن اعتبار المنهج الفينومنتولوجي حاضر ضمن استراتيجية التفكيك؟ و إلى أي مدي يمكن الحديث عن مابعد فينومنتولوجيا عند دريدا؟

- الفينومنتولوجيا و الموقف من الميتافيزيقي:

تجديد الميتافيزيقي منذ ثلاثة عقود هو حدث كبير غير جذريا الواقع الفلسفي ولا تزال هذه الإشكالية مطروحة في الواقع الفلسفي المعاصر،مراجعة الميتافيزيقي قائم على رؤية و على منهج لقد ساهمت الفينومنتولوجيا بإيجابية في النقاش دون إقصاء لأي ميتافيزيقي أو فلسفة تحليلية. في أحداث منعطف حاسم ضمن إشكالية المعرفة و مراجعة الرؤية الميتافيزيقي.

لقد تميزت الفلسفة المعاصرة برفض شبه مجمع للميتافيزيقي عرفت عنه الفلسفات التحليلية بصورة واضحة من خلال اعتبار القضايا و الأسئلة الميتافيزيقي خالية من المعنى الواقعي،كما ان فينومنتولوجيا هوسرل و هايدغر ذاتها ،وجهت ضد الميتافيزيقي ،و تم فهم الفينومنتولوجيا كمسألة للميتافيزيقي الترسانة التالية.⁽¹⁾

1 Denise SERON, métaphysique phénoménologique, revue Bulletin d'analyse phénoménologique université de Liège, volume 2 numéro 2 mars 2006, p4 .

كيف يتحدد الموقف الفينومولوجي من الميتافيزيقيا؟

نسعى من خلال هذا السؤال لإجلاء الرؤية الفينومينولوجية للميتافيزيقيا، انطلاقاً من المسلمة التالية ترجع الرؤية الفينومينولوجيا النقدية للمعرفة و العالم إلى المشروع الكانطي النقدي المتفحص لشروط المعرفة.

لقد استعاد هوسرل بدوره التصور الكلاسيكي للميتافيزيقيا كنظرية للأشياء بصفة عامة، واعتبرها ضرورة الفلسفية، على الفلسفة ان تكون الميتافيزيقيا بامتياز. ما يعنى أن الفينومينولوجيا ليست منهجا فلسفيا مالم تصبح فلسفة فينومينولوجية، بعبارة أخرى إلا في اطار مشاركتها في الميتافيزيقيا، نظرية عن وجود الأشياء، دون ذلك تبقى الفينومينوجيا علم الوعي بالمواضيع النفسية.

بعد ذلك أسس هوسرل للتمفصل بين الفينومينولوجيا و الميتافيزيقيا في استمرارية للمشروع النقدي الكانطي. يتعلق الأمر قبل كل شيء بتأسيس الميتافيزيقيا، وهذا مشروع بضمان بشكل قبلي إمكانية و صلاحية على الأقل نقد للمعرفة.

مشروع التأسيس القبلي لشروط المعرفة عند كانط قائم على النقد، يعتبر كانط ان الفيلسوف يبقى دوغمائيا وقتا طويلا إذا لم يتساءل حول شروط المعرفة الميتافيزيقية، إذا لم يطرح السؤال: كيف تكون للأحكام التركيبية القبلية ممكنة؟ ليس هذا التساؤل يعبر عما سماه كانط النقد. إن ما يقابل الميتافيزيقيا الدوغمائية بالنسبة لكانط، ليس هو لا ميتافيزيقيا أو ضد ميتافيزيقيا و إنما ميتافيزيقيا مؤسسة على النقد، مسبوقه بنظرية المعرفة، يقول كانط في مقدمة «نقد العقل الخالص»: «النقد هو التحضير المؤقت الضروري لتقدم الميتافيزيقيا».⁽¹⁾

وجهة النظر الكانطية هذه نعتبرها مسلمة غير قابلة للتجاوز في فينومينولوجيا هوسرل، ليست المسلمة التي تبنها هوسرل بعد المنعطف الترسندتالي فحسبو إنما هي وجهة نظر «البحوث المنطقية» الكتاب الذي يشكل الجزء الأكبر من نظرية المعرفة، حيث كان الهدف هو تأسيس المعرفة العلمية و الفلسفية، ما يجعلنا نعتبر أن السؤال المطروح من طرف هوسرل هو من قبيل السؤال الكانطي عن امكانية المعرفة في مقدمة الجزء الثاني من البحوث المنطقية، يدافع عن فكرة أن نظرية المعرفة هذه يجب أن تسبق كل علم يفهم من هذا علم النفس و أيضا الميتافيزيقيا.⁽²⁾

نتيجة هذا ما يسميه هوسرل la neutralité métaphysique الحياد الميتافيزيقي لنظرية المعرفة. مبدأ نظرية المعرفة ضمن «البحوث المنطقية» هو غياب أي فرض ميتافيزيقي مسبق لم يتم تفحصه نقديا، لكن هذا لا يعنى أن الفينومينولوجيا تعارض الميتافيزيقيا، الفينومينولوجيا يقول هوسرل في التأملات الديكارتية: «علينا أن نقص الميتافيزيقيا الساذجة فحسب» نفهم من هذا أنها لا تقص الميتافيزيقيا المؤسسة على نقد المعرفة، ليتحول سؤال هو المعرفة إلى كيف نشيد ميتافيزيقيا غير ساذجة؟⁽³⁾

1 Ipd, p7

2 Ipd, p8

3 Ipd, p8

الفيينومولوجيا في نقدها الميتافيزيقية و اقتراحها منهج التعليق لم تسعى لإقصاء و رفض الميتافيزيقا، بعد هذا التمهيد الضروري تفتح لنا اللحظة التساؤل ما كانت رؤية دريدا للميتافيزيقا ؟ هل يحضر التصور الفيينومولوجي ضمن موقف التفكيك من الميتافيزيقا ؟ و هل يمكن الحديث عن خلفية منهجية الفيينومولوجية للتفكيك؟

من المسلم أن الفيينومولوجيا كانت رافدا أساسيا في تكوين دريدا، لقد ساهم دريدا في بدايات تكوينه بترجمة و تقديم عمل هسرل «في أصل الهندسة» سنة 1967.

بالعودة للمشهد الفلسفي الفرنسي المعاصر لا يظهر على ما يبدو في الفلسفة أي توافق أو وحدة موقف بخصوص الفيينومولوجيا، إنه إذا تم قبول الفيينومولوجيا كمنهج قائم بالأساس على إظهار و وصف الظواهر كما تُبدى ذاتها، غير أن فهم و تصور الظاهرة يبقى محل جدل: عند ميشال هنري في باطنية الخالصة الخاصة «حميمية الأنا» تجلي و تكمن حقيقة الظواهر، أما بالنسبة لليفناس فهي في الخارج الخالص الخاص «لآخر المطلق» ينتج كل المعنى.

كما أنه ليس هناك مفهوم مشترك للميتافيزيقا لا على طريقة كانط كتجاوز لحدود التجربة، و لا على طريقة نيتشه و هايدغر⁽¹⁾.

أما بالنسبة دريدا على العكس من ليفيناس و هنري لا يعود إلى المطلق، و مصطلح ميتافيزيقا لا يعرف عنده سوى استعمال (غير محبب) péjoratif، لا نجد عنده أي تعريف لجوهر الميتافيزيقا على خلاف هيدغر الذي يستلهم منه. الميتافيزيقا تعرف بـ«الحضور» مأخوذا كحضور خالص المكتمل، الحضور المطلق ضمن العبارة المرددة دوما «الميتافيزيقا الحضور» وهي ترجع إلى نظام من المتعارضات/روح، معقول /محسوس...ترجع في كلها إلى التعارض أصل /فرع. لا توجد عند دريدا نظرية للنسيان الوجود أو العمى الميتافيزيقي، لذا فإن معرفة أسباب التي يريد إنشاء نقد أو تجاوز للميتافيزيقا من أجلها تجعلنا نعود إلى المسائل التي توجه إليها نقده مباشرة، نقصد بالتحديد قضايا الحضور و الكتابة .

يرتاب دريدا في امتلاك الفيينومولوجيا لميتافيزيقا حضور بالنظر إلى كونها تعطي امتيازاً أساسياً لحضور الوعي للانا.

- تفكيك ميتافيزيقا الحضور:

انتبه دريدا مبكراً لأزمة الميتافيزيقا من خلال قراءته لنصوص هيدغر و فهمه لرهانات التي يطرحه مشروعه، يقول: «كل ما أقوم به هو أنني أضع سؤال الوجود كحضور و هو التعيين الذي رأى فيه هيدغر قدر الفلسفة»⁽²⁾، يكشف هذا التصريح عن الاهتمام المشترك للفيلسوفين الذي لا يخرج عن الحقبة المعاصرة لمراجعة آليات الميتافيزيقا المسيطرة على الفكر بالخصوص إطلاقه تصورات الذات، العقل والحقيقة التي أنتجت المركزيات وولدت العنف و الإقصاء.

1 Michel Haar, La philosophie française entre phénoménologie et métaphysique, presse universitaire de France, 1999, p1

2 - دريدا_مواقع_نقل_عن: الفروي على الحبيب_نقد العقل الميتافيزيقي_ دار الفارابي_ط1_بيروت_لبنان_ص83

تتكأ الميتافيزيقا عبر تاريخها على سند الحضور باعتباره تجليا متماسكا غير قابل للمساءلة «حضور الموضوع بوصفه جوهرًا ومثالا Eidos، الحضور بوصفه جوهرًا و ماهية (كائنية) Ousia، الحضور الزمني بوصفه آن و لحظة Nunc، الحضور الذاتي و الوعي للانا أفكر Cogito، الحضور معا للذات و الآخر البيندائية كحضور قصدي للاناEgo»⁽¹⁾، تلك المحطات فتح دريدا نقاش مع أكبر فلاسفتها أفلاطون ديكرت هوسرل من خلال نصوصهم الكبرى لكشف آليات تقوّمها، إن التحديدات التي تقف على معنى الحضور باعتباره ضمان التماسك الذي تقف عليه تصورات الوجود و الحقيقة، تحتاج إلى خلخلة لكشف المركزية التي تنشئها.

يتأسس مشروع دريدا النقدي التفكيكيّ على نقد المركزية بتفحص منظومة الخطاب الفلسفي الغربيّ عبرتاريخه الممتد، ومناقشة الخصوصية معينة في كلّ لحظةٍ من لحظاته، التفكيك هو مصطلح نحته دريدا في كتابه الغراماتولوجيا La grammatologie سنة 1967 كطريقة جديدة لقراءة النصوص، تحديدا نصوص المؤسسة للتقليد الفلسفي الميتافيزيقي الغربي، يعمل التفكيك على تأزيم الفرضيات المسبقة التي يحملها النص، وكذا العناصر الإجرائية الأكثر عمقا في بناء التقليد الفلسفي، المتمثلة أساسا في تمييز ميزتي الحضور La présence و الوضوح La clarté بجانب مفهوم الحقيقة، و التي تؤسس لتراتبيات: الحضور/الغياب، الوجود/العدم، الصحيح/الخطأ،⁽²⁾ وتعتبر التنايبات الميتافيزيقية التي شكلت متعارضات حكمت تاريخ الفكر الغربي : واقع/مثال مومان/ فينومان، أهم الممارسات التي يستهدف التفكيك بعملية القلب و الخلخلة للخروج من فضاء التعارض و نظام ذاته⁽³⁾، يقول دريدا: «في التعارض الفلسفي التقليدي لسنا أمام تعايش للطرفين المتقابلين بل أمام تراتبية قامعة، إذ يهيمن أحد الطرفين على الآخر قيما و منطقيا.»⁽⁴⁾ تفكيك الخطاب هو إظهار كيفية تساقط الأسس القائم عليها، و ذلك بتعيين ماهية العمليات البلاغية و المنطقية التي يبني عليها حجاج النص، بغرض إبطال فكرة الأصل أو الأسبقية المنطقية و القيمة و امتياز الحضور الذي للطرف الأول في الثنائية.

قضية التفكيك هذه استدعت ممارسة استراتيجية قراءة خاصة لطالما تمنع دريدا عن تعريفها أو تحديد معالمها كمنهج قائم على قواعد محددة تتبع للوصول لنتائج معينة، ذلك أن لم يكن دريدا صديقا للمفاهيم، يصرح في «رسالة لصديق ياباني» أن تعريف التفكيك أمر غير ممكن و أن كل عبارة من قبيل التفكيك هو كذا أو ليس التفكيك كذا هي عبارة غير صائبة، و أن كل تعريف للتفكيك قابل للتفكيك، حيث يمكن القول أنه كل يسعى لبلورت ارتياببخصوص كلمات ومفاهيم و يقينيات.⁽⁵⁾ غير أن بعض القراءات المعاصرة تسعى للتماس خطوط منهجية ضمن الممارسة التفكيكية كتلك التي ترد الفعل التفكيكي المفتوح إلى الإيبوخي الهوسرلي أخرى تربطه بالهرمنيوطيقا لتجعل منه أسلوبا تأويليا خاصا .

1 دريدا الكتابة و الإختلاف نقلا عن: جونثانكلر تر حسام نايل _ التفكيك _ مجلة فصول_العدد66_ربيع2005 الهيئة المصرية العامة للكتاب_مصر_ص93

2 Gand dictionnaire de la philosophie ,direction de Michel BLAY,La rousse CNRS, p249

3 Les notions, PUF, p557

4 جونثانكلر_ المرجع السابق ص89

5 دريدا جاك ،استراتيجية تفكيك الميتافيزيقا، تر:عز الدين الخطابي، أفريقيا الشرق 2013 ،الدار البيضاء المغرب ،ص5.

- التعليق الفينومولوجي و التعليق الجذري:

هذا المنظور الذي يربط التفكيك الفينومولوجيا على مستوى المنهج، يعتبر لحظة التعليق La suspension ميراث التقليد الفينومولوجي، والتعليق الفعل الأكثر جذرية و حسما في الفينومولوجيا، لأن هذا الفعل هو المدخل لممارسة التفكير للفينومولوجي. يعد دريدا أكثر حاملي هذا الميراث الفينومولوجيا مفارقة، هذا الوريث المقاطع سيأسس لتقليد الانتماء المستقل للفينومولوجيا.

هذا التعليق للفينومولوجيا يظهر بطرق متعددة كايبوشي الفينومولوجي الهوسرلي ، الإيبوشي الوجود الهيدغري، كايبوشي يعلق الوجود في حد ذاته، و ستصبح الإيبوشي اسما آخر للاختلاف عند دريدا.⁽¹⁾ نريد أن نوضح أن الإيبوشي هو من أسماء الاختلاف، اسم ليس فقط يرسى تقليدا للفينومولوجيا، وإنما خاصة مستقبلا، و وحده المستقبل يمكنه ارساء تقليد، يمكنه ضمان انطلاقه و استرجاعه المستقبل مقاطعة التقليد، المقاطعة في حد ذاتها ترسي التقليد و تأسسه، إن التقليد يتأسس في مستقبله.

«الإيبوشي هو التفكيك» إنها أطروحة تفترض أن أسلوب التفكيك بالأصل هو التعليق الإيبوشي، حيث القدرة التفكيك تكمن تعليق أي أطروحة، سنحاول تعميق هذه الرؤية من «لحظات» اللامقرر suspens التي تفتحها نصوص دريدا.⁽²⁾ ايبوشي يظهر بين قوسين دائما لحظة أو تعليق الحكم، أما «الأسلوب التعليقي الإيبوشي» الديردي هو محاط بظفرين تعلق معناه الفينومولوجي، فهو يتشكل من سلسلة غير منقطعة من اللحظات التعليقية، و لحظة التعليق التي هي، تعليق للحظة ذاتها نفهم «اللحظة» كفترة أو زمانية مؤقتة و التعليق يتضمن دلالة الإرجاء différence، هذا الإرجاء المستمر هو ما يمنح إمكانية التفكيك يقول دريدا: «هنا لحظة تعليق، وقت الإيبوشي، و بدونه في الواقع لا وجود لإمكانية التفكيك»⁽³⁾

إمكانية التفكيك ليست مجرد إمكانية مقولية أو منطقية، لأن إمكانية التفكيك هي ما يحدثه، و حدث التفكيك لا يعلق فعل التعليق، بل يبقى عليه حاضرا كإمكانية، فالإيبوشي لا يختفي بعد اتمامه كخطوة منهجية، بإمكانية منطقية أو في كون ما هو واقع نفيًا ممكن أو لم يعد ممكنا كونه قد تحقق، و الممكن أصبح ماضيا، تم تجاوز من خلال تحققه، هنا حدث التعليق لا يعلق فعل التعليق الذي يبقى متحققا.⁽⁴⁾

الهدف من الأسلوب التعليقي الديردي هو الإبقاء على التعليق، الذي بتعلقه يختفي الحاضر الفعلي مع الإبقاء عليه، و معنى مع الإبقاء عليه هو الإبقاء على حاضر مكتمل الذي هو لم يوجد أبدا في الواقع، اللحظة تفيض على منطق الحضور المحدد في الحضور المكتمل الغير معلق، كمعطى للإيبوشي التفكيك

1 Vincent Houillon, La suspension de la phénoménologie : la déconstruction, collège internationale de philosophie 2002 / 1 n 35 , p29 .

2 Ibid, p30

3 Ibid, p31

4 Ibid, p32

هو ما هو معطى من لحظة التعليق.⁽¹⁾ الإيبوخي تعليق الزمن (الإرجاء la déffirance)، و لفكر الوقتية la temporalisation كحضور واكتمال، يعود التفكير إلى الإيبوخي الذي يعلق كل خطاب و يمنعه من أن ينهي ذاته (ينغلق)، امكانية ممارسة التفكير.

لكن كايبوخي أليس بعد فينومينولوجيا؟ ألا تتجاوز الفينومينولوجيا حدودها التقليدية؟ هي أسئلة يعاود دريدا طرحها في قراءته لميتافيزيقا الفينومينولوجية من خلال ممارسات التعليق الجذري.

لقد كان المنعطف الذي أحدثته الفينومينولوجيا رؤية و منهجا حاسما بشكل جعل طرح أسئلة المعرفة و الأنطولوجيا بعد الفينومينولوجيا يغير حتى المفهوم المرهلي لما بعد ذلك أن التفكير ضمن الأفق النقدي الفينومينولوجي متعدد الإمكانيات، وتعتبر الممارسة التفكيكية وريثا لو بصفة «غير وافية» للتقليد الفينومينولوجي، تجعل من «مشروع نقد الميتافيزيقا بواسطة استعادة الكتابة و وضعها الفلسفي عند دريدا مشتبه اشتباكا حميما بتأويل البنية الميتافيزيقية لفينومينولوجيا هوسرل»⁽²⁾ بدرجة جعلت الباحثين يرون أن الأفقا لما بعد فينومينولوجي، والقراءات المعاصرة للفينومينولوجيا لا يخرج الأسلوب الفينومينولوجية ذاته.